الأبعاد الدلالية لأسلوب الاشتغال

دراسة تطبيقية في القرآن الكريم

د. محروس السيد بُرَيّك
كلية الآداب – جامعة حائل

الأبعاد الدلالية لأسلوب الاشتغال
دراسة تطبيقية في القرآن الكريم

د. محروس السيد بُرِّيك
كلية الآداب – جامعة حائل

ملخص البحث:

أسلوب الاشتغال من الأساليب الشائعة في القرآن الكريم، ولم يرد في القرآن الاسم المشغول عنه منصوبا وجوبا ولا مرفوعا وجوبا، أي أن جميع ما ورد في القرآن يجوز فيه الرفع أو النصب إما على جهة ترجيح أحد الوجهين أو على جهة تساويهما، وكثيرا ما ترد في الآية قراءة بالرفع وأخرى بالنصب؛ مما يعطي مساحة أوسع للتأويل الدلالي، ولعل ذلك كله كان كافيا لإثارة هذا السؤال: ما الأبعاد الدلالية الكامنة في التعبير بذلك الأسلوب الشائع في القرآن؟ لقد توقف النحويون عند حدود المعالجة التركيبية لأسلوب الاشتغال؛ ببيان الأوجه الإعرابية الخمسة المعروفة للاسم المتقدم، وشجر بينهم الخلاف حول تلك الأوجه، واختلفوا –كذلك– حول عامل النصب. ولم يتعدَّ النحويون ذلك إلى بيان الدلالات الكامنة خلف ذلك التركيب، ولم يهتم البلاغيون –على غير عادتهم– ببيان تلك الدلالات، مما أدى إلى مناداة بعض المحدثين إلى إلغاء باب الاشتغال من النحو العربي. لقد حاول هذا البحث بيان الأبعاد الدلالية لأسلوب الاشتغال في العربية من خلال المعالجة التطبيقية لبعض الآيات القرآنية، مستعينا بما ورد لدى بعض المفسرين من إشارات دلالية حول أسلوب الاشتغال، وبما قدمه (النحو الوظيفي functional grammar) من تفسير جيد لهذا الأسلوب ببيان الاختلاف في الوظائف التداولية في حالتي الرفع والنصب للاسم المتقدم.

حدُّ الاشتغال:

حقيقة الاشتغال -لدى جمهور النحويين- "أن يتقدم اسم ويتأخر عنه عامل هو فعل أو وصف وكل من الفعل والوصف المذكورين مشتغل عن نصبه له بنصبه لضميره لفظاً كـ (زَيْداً ضربتُه) أو محلا كـ (زَيْداً مَرَرْتُ به) أو لما لابس ضميره نحو (زَيْداً ضربت غُلَامَهُ أو مَرَرْتُ بِغُلَامِهِ)"[1]، وانتصاب الاسم المشغول عنه بعامل (فعل أو وصف) محذوف وجوبا يفسره المذكور، مقدم على الاسم (خلافا للبيانيين) في قولهم بتقديره مؤخرا[2]. والمقصود بالفعل في هذا الباب الفعل المتصرف، والمقصود بالوصف في هذا الباب اسم الفاعل واسم المفعول دون الصفة المشبهة وصيغ المبالغة واسم التفضيل؛ "لأنه لا يُفسَّر في هذا الباب إلا بما يصلح للعمل فيما قبله"[3].

معالجة النحويين لأسلوب الاشتغال:

توقف جمهور النحويين عند حدود المعالجة التركيبية لأسلوب الاشتغال وذلك ببيان الأوجه الإعرابية الخمسة للاسم المتقدم (المشغول عنه)، ولم يتعدوا إلى بيان ما وراء ذلك من دلالات؛ فبينوا أنه [4]:

---

(١) شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب ج١ ص٥٤٦ (ابن هشام، تحقيق: عبدالغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م)، وانظر: شرح الرضي على كافية ابن الحاجب، ج١ ص٤٣٧ (رضيّ الدين الاستراباذي، تحقيق: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م)، وانظر: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ج٢ ص١٠٦-١١٨ (ضمن: حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د. ت.)، وانظر: شرح ابن عقيل ج٢ ص١٢٩ (ابن عقيل، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م).

(٢) انظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ج٥ ص١٥٨ (السيوطي، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

(٣) حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ج٢ ص١٠٢، (تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د. ت.).

(٤) انظر: همع الهوامع ج٥ ص١٥٣-١٥٧ وانظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ج٢ ص١٥٨-١٧٥ (ابن هشام الأنصاري، دار الجيل، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٧٩م).

١- **يجب نصب الاسم المشغول عنه (إن تلا ما يختص بالفعل)** كظرف الزمان المستقبل وأدوات الشرط الجازمة والتحضيض ولو الشرطية؛ **لوجوب إضمار الفعل بعدها،** وذلك نحو: إذا زيدا تلقاه فأكرمه، وإن زيدا رأيته فأكرمه، وهلا زيدا ضربته، ولو زيدا رأيته فأكرمه. **(أو تلا استفهاما بغير الهمزة)؛ لوجوب إيلائها الفعل إذا وقع في حيزها،** كهل مرادَك نلته، ومتى أمَةَ اللهِ تمضي بها.

٢- **ويختار نصب الاسم السابق، أي يُرجَّح على رفعه بالابتداء الجائز أيضا: (إن وليه فعل طلب)** وهو الأمر والنهي والدعاء، نحو: زيدا اضربه، و: زيدا أصلحَ الله شأنه. **(أو ولي همزة استفهام)** نحو: "أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ"[القمر:٢٤]؛ لأنه إذا ولي همزةَ الاستفهام اسمٌ وفعلٌ "كان أحسن أن يُبدَأ بالفعل قبل الاسم، فإن بدأت بالاسم أضمرت له فعلا، حتى يحسُن الكلام به، وإظهار ذلك الفعل [المفسَّر] قبيح"(١). **(أو ولي حرف نفي لا يختص)** نحو: ما زيدا ضربته، ولا زيدا قتلته؛ قياسا على همزة الاستفهام، وقيل الرفع فيه أرجح، وقيل هما سواء. **(أو ولي حيث)**؛ نحو: حيث زيداً تلقاه يكرمك ووجه اختيار النصب أنها في معنى حروف المجازاة. **(أو ولي عاطفا على جملة فعلية)** نحو: لقيت زيدا وعمرا كلمته؛ وإنما رجح النصب للمشاكلة. **(أو أوهم الرفع وصفا مخلا، فيُتخلص بالنصب من إيهام غير الصواب)** نحو: "إِنَّا كُلَّ شَيءٍ خَلَقناهُ بَقَدَرٍ"[القمر:٤٩] إذ رفع (كل) يوهم كون (خلقناه) صفة مُخصِّصة فلا يدل على عموم خلق الأشياء بقدر. **(أو أُجيب به استفهامٌ منصوب)** نحو: زيدًا ضربتُه، جوابا لمن قال: أيَّهم ضربتَ ؟. **(أو وليه لم أو لن أو لا)** نحو: زيدا لم أضربه، وبشرًا لن أكرمه، وزيدًا لا أضربه.

٣- **ويستوي النصب والرفع في المعطوف على جملة ذات وجهين** أي اسمية الصدر فعلية العجز؛ لتعادل التشاكل، نحو: زيد ضربته وعمرو أكرمته،وهند ضربتها وزيدا كلمته في دارها. فالنصب عطفا على العجز والرفع عطفا على الصدر.

٤- **ويرجح الرفع بالابتداء فيما عدا ذلك**، نحو: زيدٌ رأيته.

أما **ما يجب رفعه فلم يذكره بعض النحويين في باب الاشتغال لأن "حَدَّ الاشتغال لا يَصْدُق عليه"(٢)**، على حد تعبير ابن هشام (ت٧٦١هـ).

---

(١) معاني القرآن ص٨٤ (الأخفش الأوسط أبو الحسن سعيد بن مسعدة، تحقيق: د.هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩٠م).

(٢) أوضح المسالك ج٢ ص١٦١.

ويرى جمهور النحويين أن النصب في باب الاشتغال بفعل واجب الإضمار (من لفظ الظاهر) إن أمكن **(أو من معناه)** إن لم يمكن؛ نحو: إن زيدا مررت به فأحسن إليه، فيقدر: إن جاوزت زيدا مررت به(١).

وإنما كان الفعل محذوفا وجوبا يفسره المذكور؛ لأن " المفسَّر كالعوض من الناصب ولم يؤت به إلا عند تقدير الناصب ليفسره، فإظهار الفعل يغني عن تفسيره"(٢).

وعلى هذا الرأي يعد أسلوب الاشتغال جملتين لا جملة واحدة، ويترتب على ذلك مجموعة من الدلالات التي يدور معظمها حول فوائد تكرار الجملة؛ وقد ترددت تلك الدلالات لدى بعض المفسرين.

وخالف الكسائي (ت١٨٩هـ) والفراء (ت٢٠٧هـ) جمهور النحويين فلم يقولا بعامل محذوف؛ إذ الناصب " لهذا الاسم عندهما لفظ الفعل المتأخر عنه، إما لذاته إن صح المعنى واللفظ بتسليطه عليه، نحو: زيدا ضربته، فضربت عامل في (زيدا)، كما أنه عامل في ضميره، وإما لغيره إن اختل المعنى بتسليطه عليه فالعامل فيه: ما دل عليه ذلك الظاهر وسد مسده، كما في: زيدا مررت به، وعمرا ضربت أخاه، فالعامل في (زيدا) هو قولك: مررت به؛ لسده مسد (جاوزت)، وفي (عمرا): ضربت أخاه؛ لسده مسد (أهنت)، وليس قبل الاسم في الموضعين فعل مضمر ناصب عندهما"(٣)؛ وإنما جاز عندهما أن يعمل هذا الفعل في الاسم المتقدم وضميره -على الرغم من أنه متعد لمفعول واحد- **" لأن الضمير في المعنى هو الظاهر فيكون فائدةُ تسليطه على الضمير بعد تسليطه على الظاهر المقدم- تأكيدَ إيقاع الفعل عليه"(٤)**.

وعلى هذا الرأي يصبح الكلام جملة واحدة لا جملتين، وفائدته تأكيد إيقاع الفعل على المفعول به بتسليطه عليه مرة وعلى ضميره مرة أخرى. وهذا نوع من التكرار، لكنه تكرار للمعمول دون العامل، فهو تكرار على مستوى المفردات، لا على مستوى الجمل كما كان الأمر في الأخذ بالرأي الأول.

---

(١) همع الهوامع، ج٥ ص١٥٨.

(٢) شرح الرضي على الكافية ج١ ص٤٣٧.

(٣) السابق ج١ ص ٤٣٨.

(٤) السابق ج١ ص ٤٣٨.

ويرى أبو القاسم السهيلي (ت٥٨١هـ) -آخذا برأي شيخه أبي الحسين ابن الطراوة (ت٥٢٨هـ)- **أن عامل النصب في الاسم المتقدم عامل معنوي هو (القصد إليه بالذكر)**، حيث يقول: "ومما انتصِب لأنه مقصود إليه بالذكر(زيدا ضربته) في قول النحويين، وهو مذهب شيخنا أبي الحسين"(١)، والسهيلي يلحق هذا الاسم -وكذلك المنادى المنصوب(٢)- بالنوع الثالث من أنواع الحدث -إذ قسم الحدث ثلاثة أضرب(٣)- وهو ذلك الضرب الذي "لا يُحتاج إلى الإخبار عن فاعله، ولا إلى اختلاف أحوال الحدث، بل يُحتاج إلى ذكره خاصة على الإطلاق مضافا إلى ما بعده، نحو: سبحان الله، فإن سبحان اسم ينبني عن العظمة والتنزيه، **فوقع القصد إلى ذكره مجردا من التقييدات بالزمان أو بالأحوال، ولذلك وجب نصبُه كما يجب نصبُ كلِّ مقصودٍ إليه بالذكر**"(٤).

وعلى رأي ابن الطراوة (ت٥٢٨هـ) **والسهيلي** (ت٥٨١هـ) **يصبح الكلام جملة واحدة، وغرض نصب الاسم المتقدم قصده بالذكر على الإطلاق دون تقييده بزمان أو حال.**

***معالجة أسلوب الاشتغال في النحو الوظيفي functional grammar:**

يعد النحو الوظيفي الذي اقترحه سيمون دايك (Simon Dike) -ونقل مبادئه إلى العربية الدكتور أحمد المتوكل- "نظرية للتركيب والدلالة منظورا إليهما من وجهة نظر تداولية"(٥)، فهناك إذن ثلاثة مستويات تقترحها تلك النظرية هي(٦):

١- مستوى الوظائف التركيبية، نحو: (وظيفة الفاعل والمفعول).

٢- مستوى الوظائف الدلالية، نحو (وظيفة المنفذ والمتقبل).

٣- مستوى الوظائف التداولية، نحو (وظيفة المبتدأ والمحور والبؤرة والذيل).

---

(١) نتائج الفكر في النحو ص ٥٧ (أبو القاسم السهيلي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

(٢) انظر: نتائج الفكر في النحو ص ٦١.

(٣) انظر: السابق ص٥٦-٥٧.

(٤) السابق ص ٥٧.

(٥) الوظائف التداولية في اللغة العربية ص١٠ (أحمد المتوكل، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

(٦) انظر: السابق ص ١١.

وتترتب المكونات داخل الجملة تبعا لمجموعة من القواعد غير التحويلية، إذ تعد كلُّ بنيةٍ بنيةً أصلية غير محولة عن بنية أخرى، وذلك تبعا لما تقدمه من وظائف تداولية. وفي اللغة العربية تتوالى المكونات في الجملة الفعلية –تبعا لتلك النظرية– على هذا النحو(١):

المبتدأ(بوصفه وظيفة تداولية لا نحوية)– الأدوات التي لها حق الصدارة– المحور أو البؤرة – الفعل – الفاعل – المفعول – الذيل.

ففي نحو: محمدٌ، هل قابلته؟ تعد كلمة (محمد) مبتدأ محدَّثا عنه يحدد مجال الخطاب، و(هل) أداة لها حق صدارة جملتها التالية لها، و(قابلته) فعل وفاعل ومفعول، وهو ما يطلقون عليه (الحمل).

وفي نحو: محمدًا قابلتُه، شَغَلت كلمة (محمدا) وظيفة المحور، وهو محدث عنه كذلك إلا أنه محدث عنه داخل الحمل (أي: داخل الإسناد) وإنما تقدم إشعارا بالعناية والاهتمام.

إن أصحاب هذا الاتجاه يرون أن ثمة فروقا بين الوظيفة التداولية لكلمة (زيد) في كل جملة من هذه الجمل:

- زيدًا رأيت.
- زيدٌ رأيته.
- زيدًا رأيته.

ففي الجملة الأولى وقعت كلمة (زيدا) في صدر الجملة لتحتل وظيفة **(بؤرة المقابلة)** التي "تسند إلى المكون الحامل للمعلومة التي يشك المخاطب في ورودها أو المعلومة التي ينكر المخاطب ورودها"(٢).

في حين أن كلمة (زيد) تعد في الجملة الثانية **(مبتدأ)**، والمبتدأ –بوصفه وظيفة تداولية لا نحوية– هو ما كان خبره جملة، أما ما كان خبره مفردا أو شبه جملة فيعده

---

(١) انظر: الوظائف التداولية في اللغة العربية ص٢١.

(٢) السابق ص٢٩.

أصحاب هذا الاتجاه فاعلا، والفارق بين المبتدأ والفاعل أن المبتدأ خارج عن بنية الحمل (أي الإسناد)، أما الفاعل فداخل في نطاق الحمل(١).

والأهم من ذلك أن **المبتدأ يحدد موضوع الحديث الذي يعرضه المتكلم على المخاطب**، بالإضافة إلى قيام المبتدأ بدور تحديد مجال الخطاب للكلام التالي له(٢) وهو هنا جملة (رأيته).

أما كلمة (زيدا) في الجملة الثالثة فتؤدي **وظيفة (المحور) التي "تسند إلى المكون الدال على ما يشكل المحدَّث عنه داخل الحمل "**(٣) وكون الشيء محدَّثا عنه يعني أنه معروف لدى المتكلم والمخاطب كليهما.

فالمبتدأ والمحور يشتركان في أن كلا منهما محدث عنه، إلا أن المحور محدَّث عنه داخل الحمل، وإنما قدم إلى هذا الموقع **"إشعارا بكونه محط اهتمام ومحل عناية"**(٤)، في حين أنه في حالة الرفع شغل وظيفة تداولية خارجية أي خارجة عن نطاق الحمل، **"لا تعني أكثر من كونها محددة لمجال الخطاب، والحمل بعدها يقدم فحوى الخطاب"(٥)**، وليس فيه ما في الجملة الثالثة من الاهتمام والعناية.

إذن ففي اختيار نصب الاسم المتقدم (المشغول عنه) عناية واهتمام ليستا له عند اختيار رفعه، إذ اختيار الرفع يعني أن هذا الاسم المتقدم يحدد موضوع الحديث الذي يعرضه المتكلم على المخاطب، دون إرادة معنى الاهتمام والعناية.

إن كون الاسم المنصوب المقدم في نحو قولنا)زيدا رأيته) **محدثًا عنه وأنه محلٌّ عنايةٍ واهتمامٍ** يؤكد ما ذهب إليه السهيلي (ت٥٨١) –كما أوضحنا من قبل– عندما أشار إلى أن هذا الاسم **(وقع القصد إلى ذكره مجردا من التقييدات بالزمان أو بالأحوال)(٦)، إذ القصد إلى ذكره مطلقا يعني أنه محلٌّ عناية واهتمام.**

---

(١) انظر: البعد التداولي في النحو الوظيفي من منظور المعطى اللغوي التراثي ص٥٣–٥٤ (د. طه الجندي، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، إصدار خاص سنة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م).

(٢) انظر: الوظائف التداولية في اللغة العربية ص١١٥.

(٣) السابق ص٦٩.

(٤) البعد التداولي في النحو الوظيفي ص٦٥، وص٨٤.

(٥) السابق ص٦٢.

(٦) نتائج الفكر في النحو ص٥٧.

كما أن إشارتهم إلى كونه محدَّثًا عنه **داخل الحمل** يؤدي بالضرورة إلى كون هذا الأسلوب جملة واحدة لا جملتين؛ ولمَ لا وهم يعدون تلك الوظائف مرتبة وفقا لقواعد غير تحويلية -كما أوضحنا آنفا- وتلك النظرة تتفق مع ما ذهب إليه الكسائي (ت ١٨٩هـ) والفراء (ت ٢٠٧هـ) من قبل عندما رَأَيَا أن الناصب للاسم المتقدم هو لفظ الفعل المتأخر عنه؛ **وهذا كله يؤكد أن في نصب الاسم المتقدم المشغول عنه اهتماما وعناية ليست له عند اختيار رفعه، كما أن فيه تأكيدَ إيقاعِ الفعل على المفعول به بتسليطه عليه مرة وعلى ضميره مرة أخرى**. وهذا نوع من التكرار على مستوى المفردات، كما أشرنا من قبل.

وخلاصة الأمر أن تلك المعالجات والآراء المختلفة تؤكد أن في اختيار نصب الاسم المشغول عنه اهتماما وعناية ليست له عند اختيار رفعه. كما أن هذا الأسلوب يحتوي تكرارا اختُلف في طبيعته، فعلى رأي الجمهور يعد التكرار تكرارا على مستوى الجمل؛ إذ التكرار للعامل والمعمول كليهما. في حين أن رأي الكسائي (ت ١٨٩هـ) والفراء (ت ٢٠٧هـ) والسهيلي (ت٥٨١هـ) -وكذلك اتجاه النحو الوظيفي- يفضي إلى كون التكرار تكرارا على مستوى المفردات للمعمول وضميره دون العامل. ولا شك أن في التكرار توكيدا يتحقق في حالتي الرفع والنصب، ويبقى للمنصوب فضل العناية والاهتمام؛ ولعل تلك العناية وهذا الاهتمام كانا سببا في كثرة اختيارهم نصبَ الاسم السابق، وسببا في الحكم بأن النصب أجود من الرفع؛ يقول الأخفش (ت ٢١٥هـ) معلقا على أسلوب الاشتغال بعدد من الآيات والأبيات: "وكلٌّ هذا يجوز فيه الرفع على الابتداء **والنصب أجود وأكثر**"(١).

من دلالات أسلوب الاشتغال:

تأكد لنا -مما سبق- أن **معنى (التوكيد) من المعاني التي لا تنفك عن كل جملة بها اشتغال**؛ لأن الاشتغال -أخذًا برأي الجمهور- يعد "في قوة تكرار الجملة"(٢).. وبعبارة أخرى: يُختار أسلوب الاشتغال لإرادة تقوية الفعل وتوكيده بتقدير نظيره المحذوف(٣)

---

(١) معاني القرآن للأخفش ص ٨٦.

(٢) التحرير والتنوير ج٢٧ ص ١٦ (محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م).

(٣) انظر: السابق ج١٤ ص ٤٢.

من جهة، وتأكيد المشغول عنه بتقديمه ثم توكيده بالضمير من جهة أخرى، **يضاف إلى ذلك معنى الاهتمام والعناية إذا ما اختير نصب المشغول عنه.**

تلك هي المعاني العامة أو الرئيسة التي تصاحب أسلوب الاشتغال، ويلحق بها مجموعة من المعاني الفرعية التي تختلف من جملة لأخرى تبعا لسياق الكلام، فإذا لم يتجلَّ معنى من تلك المعاني الفرعية اكتفى التركيب بأداء المعاني الرئيسة.

وتنبغي الإشارة -قبل الشروع في بيان دلالات أسلوب الاشتغال في القرآن- إلى أنه "لم يقع في القرآن ما يجب نصبه في الاشتغال، ولا ما يجب رفعه"(١). ولعل سيبويه (ت١٨٠هـ) عندما تحدث عن الاشتغال قد راعى ذلك البعد دون أن ينص عليه؛ إذ تكلم عن أسلوب الاشتغال في عشرة أبواب من كتابه(٢)، فبدأ ببيان جواز الرفع والنصب في الاسم المتقدم؛ موضحا المواطن التي يحسن فيها النصب والمواضع التي يحسن فيها الرفع، ثم بيَّن ما يستوي فيه الوجهان (الرفع والنصب). ولم يتطرق سيبويه إلى الوجهين الآخرين (وجوب النصب ووجوب الرفع) إلا قليلا. وتلك المعالجة تتفق مع ما ورد في القرآن الكريم من أسلوب الاشتغال؛ وبخاصة أن أسلوب الاشتغال ليس أسلوبا شائعا في أي نص شيوعه في القرآن الكريم، والمتتبع لما أورده الشيخ عبد الخالق عضيمة يتأكد له ذلك الشيوع، إذ أورد عشرات الآيات التي تحتوي على أسلوب الاشتغال، مراعيا في ذلك الوجوه المختلفة للآية تبعا للقراءات القرآنية(٣) .

وفيما يلي نتتبع تلك الدلالات لأساليب الاشتغال في القرآن الكريم:

أولا: التوكيد:

أشرنا آنفا إلى أن التوكيد يعد من الدلالات الرئيسة التي لا تنفك عن كل جملة بها اشتغال، وذلك ما اتضح لنا من خلال معالجات النحويين -على اختلاف طرائقهم في النظر إلى أسلوب الاشتغال- وتأكد لدى علماء النحو الوظيفي؛ وأشرنا إلى أن علة ذلك

---

(١) دراسات لأسلوب القرآن الكريم، القسم الثالث ج٢ ص١ (محمد عبد الخالق عضيمة ، دار الحديث ، القاهرة).

(٢) انظر: الكتاب ج١ ص ٨٠-١٥٠ (سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

(٣) انظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، القسم الثالث، ج٢ ص١وما بعدها.

أن "الاشتغال في قوة تكرار الجملة"(١).. وأن أسلوب الاشتغال يُختار لإرادة تقوية الفعل وتوكيده بتقدير نظيره المحذوف(٢) من جهة، وتأكيد المشغول عنه بتقديمه ثم توكيده بالضمير من جهة أخرى.

إن التوكيد يستلزم أن يكون الكلام أقوى في الدلالة على المعنى المراد، ذلك لأن الشيء - على حد تعبير الزركشي- " **إذا أضمر ثم فسر كان أفخم مما إذا لم يتقدم إضمار**، ألا ترى أنك تجد اهتزازا في نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾[التوبة:٦]. وفي قوله: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ ﴾[الإسراء:١٠٠]. وفي قوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[الإنسان:٣١]. وفي قوله: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾[الأعراف:٣٠]- لا تجد مثله إذا قلت: وإن استجارك أحد من المشركين فأجره. وقولك: لو تملكون خزائن رحمة ربي. وقولك: يدخل من يشاء في رحمته وأعد للظالمين عذابا أليماً، وقولك: هدى فريقا وأضل فريقا؛ **إذ الفعل المفسر في تقدير المذكور مرتين**"(٣).

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾[الحجر:٢٦-٢٧]. رُجح نصب (الجان) على الاشتغال لعطف جملة (والجان خلقناه) على جملة فعلية هي (ولقد خلقنا الإنسان)، فتحققت بذلك مشاكلة على المستوى التركيبي. يقول سيبويه (ت١٨٠هـ) في اختيار النصب للعطف على جملة فعلية: " وإنما اختير النصبُ ههنا لأن الاسم الأول مبنيٌّ على الفعل، فكان بناءُ الآخِرِ على الفعل أحسنَ عندهم؛ إذ كان يُبنَى على الفعل وليس قبله اسمٌ مبنيٌّ على الفعل، ليَجريَ الآخِرُ على ما جرى عليه الذي يليه قبله، إذ كان لا ينقض المعنى لو بنيته على الفعل. وهذا أولى أن يُحمل عليه ما قَرُب جِوارُه منه، إذ كانوا يقولون: ضربوني وضربتُ قومَك، لأنه يليه، فكان أن يكون الكلامُ على وجه واحد -إذا كان لا يَمتنِع الآخِرُ من أن يكون مبنيًّا على ما بُنِي

---

(١) التحرير والتنوير ج٢٧ ص ١٦.

(٢) انظر: السابق ج١٤ ص ٤٢.

(٣) البرهان في علوم القرآن ج٣ ص٩٠ (الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة).

عليه الأول– أقربَ في المأخذ"(١) وقول سيبويه(فكان أن يكون الكلامُ على وجه واحد أقربَ في المأخذ) هو ما أردناه بالمشاكلة على المستوى التركيبي. ولما كانت الجملة الأولى (المعطوف عليها) مؤكدة باللام و(قد) – أُكدت جملة (والجان خلقناه) "بصيغة الاشتغال التي هي تقوية للفعل بتقدير نظيره المحذوف، ولما فيها من الاهتمام بالإجمال ثم التفصيل"(٢)، وبذلك تتحقق المشاكلة على المستويين التركيبي والدلالي، وتتأكد المساواة في الخلق بين اللِّفْقين (الإنس والجن)، ويسقط ادعاء إبليس الأفضلية على بني البشر لكونه خُلق من نار وخُلقوا من طين. ولو كانت مادة الخلق مدعاة للتفاضل لما انصرف التوكيد إلى الحدث وفاعله ومفعوله (والجان خلقناه) دون القيد (من نار السموم)، ففي بناء جملة (والجان خلقناه) على صيغة الاشتغال اهتمامٌ بالمفعول به (الجان) لذكره مقدما ثم توكيده بالضمير، وتأكيدٌ للفعل وفاعله بتقدير نظيرهما المحذوف، إذ تقدير الكلام (وخلقنا الجان خلقناه). إن تلك التسوية بين القبيلين تعد مقدمة ضرورية لبيان أن الأمر بالسجود لآدم في الآيات التالية لم يكن إلا لأن الله سواه ونفخ فيه من روحه: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[الحجر: ٢٩]، وبذلك فُضل آدم.

وفي قوله تعالى في سورة النحل: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل: ٣–٨] سيقت الآيات للامتنان "وسورة النحل تسمى سورة الامتنان"(٣) وخصت الأنعام بزيادة بيان وتفصيل، ولاءم ذلك إتيان جملة (والأنعامَ خلقها) على طريقة الاشتغال؛ لما في الاشتغال من توكيد بتقدير فعل محذوف يفسره المذكور، ولما فيه من الاهتمام بالمشغول عنه (الأنعام) بتقديمه ثم توكيده بالضمير لكون الأنعام محل الاعتبار؛ "والتقدير: وخلق الأنعام خلقها.

---

(١) الكتاب ج١ص٨٨–٨٩.

(٢) التحرير والتنوير ج١٤ ص٤٢.

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٧/ ١١٤ (محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

فيكون الكلام مفيداً للتأكيد، لقصد تقوية الحكم، اهتماماً بما في الأنعام من الفوائد، فيكون امتناناً على المخاطبين، وتعريضاً بهم، فإنهم كفروا نعمة الله بخلقها، فجعلوا من نتاجها لشركائهم وجعلوا لله نصيباً. وأي كفران أعظم من أن يُتقرَّب بالمخلوقات إلى غير من خلقها "(١). ورَجَّح النصبَ عطفُ جملة (والأنعامَ خلقها) على جملة فعلية هي قوله تعالى (خَلَقَ الإنسانَ) ويؤكد العطفَ وجودُ سبب دلالي بين الجملتين يتمثل في أن الله عز وجل "لما ذكر الإنسان ذكر ما منَّ به عليه"(٢).

وتأكيدا لهذا الاهتمام بالأنعام وفوائدها –المستفاد من صيغة الاشتغال– اختتم الكلام عن خلق الأنعام وتعداد منافعها ببيان أن في ذلك رأفة ورحمة من الله عز وجل ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. ولما كانت الخيل والبغال والحمير دون الأنعام (الإبل والبقر والضأن والمعز) في مدى الفائدة للناس لم تأت جملتها على طريقة الاشتغال –كما كان الحال مع الأنعام– فالأنعام "خلقها الله تعالى لبني آدم ولم يخلقها لغيرهم، لهم فيها دفء إذ يصنعون الملابس والفرش والأغطية من صوف الغنم ووبر الإبل، ولهم فيها منافع كاللبن والزبدة والسمن والجبن والنسل حيث تلد كل سنة فينتفعون بأولادها. ومنها يأكلون اللحوم المختلفة فالمنعم بهذه النعم هو الواجب العبادة دون غيره"(٣).

ولما كانت الإبل – من بين سائر الأنعام– "أعظمها خلقاً، وأجلها في أنفسهم أمراً، خصها بالذكر في سياق تكون فيه مذكورة مرتين معبراً بالاسم الدال على عظمها"(٤) وهو (البُدن)، فجاءت منصوبة على الاشتغال، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[الحج:٣٦]. والبُدْن: جمع بَدَنَة بالتحريك،

---

(١) التحرير والتنوير ج١٤ ص ١٠٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج١٠ ص٦٨ (القرطبي، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، السعودية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).

(٣) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ٣/ ٩٩ (أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الخامسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج١٣ ص٤٩ (برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ت.).

وهي البعير العظيم البَدن، وهو اسم مأخوذ من البَدانة، وهي عِظم الجثّة والسمن، وبعضهم ألحق بها البقرة العظيمة الجثة. قال ابن منظور: "ولا تقع على الشاة"(١).

وفي قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾[الرحمن: ٩-١٠] قرأ الجمهور بالنصب على الاشتغال في الموضعين (والسماءَ - والأرضَ) وقرأ أبو السمال بالرفع فيهما(٢). وقراءة النصب تقتضي -من وجهة نظر جمهور النحويين- تقدير فعل محذوف يفسره المذكور؛ إذ التقدير (رفعَ السماءَ رفَعَها) و(وضعَ الأرضَ وَضَعَها)، وهذا يعني أن هناك تكرارا على مستوى الجمل، والتكرار يقتضي التوكيد، ويكون الكلام "كالمذكور مرتين إشارة إلى عظيم تدبيره لشدة ما فيه من الحكم"(٣) في حين أن التكرار في قراءة الرفع تكرار للمعمول دون العامل، وعندئذ يصبح المعنى مجرد إرادة الإخبار برفع السماء ووضع الأرض للأنام دون إرادة معنى التوكيد والاهتمام.

وكذلك تقتضي قراءة النصب -من الوجهة التداولية- أن يكون المشغول عنه (السماءَ - الأرضَ) محورا؛ أي مُحدَّثا عنه داخل نطاق الجملة، وإنما قُدِّم إشعارا بالاهتمام والعناية، في حين أن قراءة الرفع تقتضي أن يكون الاسمان المرفوعان (السماءُ- الأرضُ) مبتدأين؛ أي مُحدَّثا عنهما خارج نطاق الإسناد بالجملة الرئيسة التالية (رفعها - وضعها) ويقتصر دور الاسم المرفوع -حينئذ- على تحديد مجال الخطاب فحسب، دون إرادة معنى الاهتمام والعناية.

ولما كانت سورة الرحمن "مقصودها الدلالة على ما ختمت به سورة القمر من عظيم الملك وتمام الاقتدار بعموم رحمته وسبقها لغضبه، المدلول عليه بكمال علمه، اللازم عنه شمول قدرته، المدلول عليه بتفصيل عجائب مخلوقاته وبدائع مصنوعاته"(٤)،

---

(١) لسان العرب / مادة (ب د ن) ج١٣ ص٤٧ (ابن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، د. ت.)، وانظر: التحرير والتنوير ج١٧ ص٢٦٢.

(٢) انظر: تفسير البحر المحيط ج٨ ص١٨٨ (أبو حيان الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج ١٩ ص١٤٩.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج١٩ ص١٣٩.

لما كان هذا كله ناسبه أن يأتي قوله تعالى (والسماءَ رفعها... والأرضَ وضعها للأنام) على طريقة الاشتغال توكيدا لعظيم تدبيره –عز وجل– وتمام قدرته وعموم رحمته بالأنام.

أما قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴾ [الذاريات:٤٧–٤٨] فقد ورد بعد قوله عز وجل: "وقومَ نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين"[الذاريات:٤٦]، "ولما كان إهلاكهم بالماء الذي نزل من السماء، وطلع من الأرض بغير حساب، كان ربما ظن ظان أن ذلك كان لخلل كان فيهما، ثم أصلح بعد ذلك"(١)؛ ودفعا لهذا الظن الفاسد صيغت الآيتان التاليتان على طريقة الاشتغال بنصب المشغول عنه – في قراءة الجمهور– ذلك لأن في تقديم المشغول عنه اهتماما به، "ثم بسلوك طريقة الاشتغال زاده تقوية ليتعلق المفعول بفعله مرتين: مرة بنفسه، ومرة بضميره، فإن الاشتغال في قوة تكرار الجملة. وزيد تأكيده بالتذييل بقوله: (وإنا لموسعون)"(٢)، وقوله (فنعم الماهدون).

وإذا كان القرآن في الآيات التي أوردناها آنفا قد عبر عن خلق السماء والأرض كليهما بطريق الاشتغال، فإنه –في آيات أُخر– يعبر عن خلق (الأرض) بطريق الاشتغال دون (السماء)؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾[الحجر:١٦–١٩]. وقوله تعالى ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴿٦﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾[ق:٦–٧]. وقوله عز وجل: ﴿ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴾[النازعات:٢٧–٣٢]. ذلك أنه لما كانت "الأرض لكثرة الملابسة لها والاجتناء من ثمارها يغفل الإنسان عن دلالتها، بما له في ذلك من الصنائع والمنافع"(٣) كان أنسب أن تُختص –في بعض المواطن– بفضل بيان وزيادة تأكيد، فنُصبت على الاشتغال الذي يقتضي الاهتمام والتوكيد؛ إذ الاشتغال في قوة تكرار الجملة.

---

(١) السابق ج١٨ ص٤٧٣.

(٢) التحرير والتنوير ج٢٧ ص١٦.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج١٨ ص٤١٠.

يؤكد ذلك قراءة السُّدّي (والأرضَ) بالنصب على الاشتغال في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[يوسف: ١٠٥]؛ والتقدير: "ويطئون الأرضَ يمرون عليها"(١). إنه لما كانت السماء بادية لأنظار هؤلاء المشركين لكنها مستعصمةٌ بالبعد عنهم لم تكن غفلتهم عما بها من آيات كغفلتهم عما في الأرض من آيات، فقد أَلِفُوا الأرض يمرون عليها معرضين. فلا ضير إذن أن تُخَصَّ الأرضُ بفضل توكيد –بالنصب على الاشتغال– للفت الانتباه إلى الأرض وما فيها من آيات دالة على وجود الله عز وجل ووحدانيته.

وفي قوله تعالى ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[النساء: ١٦٤] قرأ الجمهور بنصب (رسلا) في الموضعين، على طريق الاشتغال، والتقدير: (قد قصصنا رسلا عليك قصصناهم...)، وفي ذلك توكيد ليس موجودا في قراءة الرفع – والرفع قراءة أُبيّ بن كعب(٢)– ورجّح وجهَ النصب –على إرادة الاشتغال– العطفُ على جملة فعلية هي قوله عز وجل في الآية السابقة (وآتينا داوود زبورا)، وكذلك إرادة معنى التوكيد؛ "وذلك أنَّ الآية نزلَتْ رادَّة على اليهود في إنكارهم إرسال الرسل، وإنزالَ الوحْي"(٣)، كما أن في الآية وسائلَ أخرى دالةً على التوكيد نحو (قد) والتعبير بالفعل الماضي (قصصناهم) وتأكيد ذلك بقوله تعالى (من قبل)، هذا فضلا عن توكيد قوله تعالى (وكلم الله موسى تكليما) بالمفعول المطلق. إن كل تلك الوسائل المؤكدة ترجح نصب (رسلا) على الاشتغال لإرادة معنى التوكيد.

وفي نصب (رسلا) وجهان آخران، أحدهما أنها منصوبة بفعل مضمر؛ أي: وأرسلنا رسلا، والآخر أنها منصوبة عطفاً على معنى (أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ)؛ أي: أرسلنا

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ج٢ ص٤٧٩ (أبو القاسم الزمخشري، تحقيق: عبد الرازق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د. ت.)، وانظر: معجم القراءات القرآنية ٤/ ٣٥٠ (د. عبد اللطيف الخطيب، دار سعد الدين، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).

(٢) انظر: معجم القراءات للخطيب ج٢ ص٢٠٣.

(٣) اللباب في علوم الكتاب ج٧ ص١٣٤ (ابن عادل الدمشقي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، وانظر: تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج٣ ص٤١٤.

ونَبَّأنا نُوحاً ورسلاً(١)، وهذان الوجهان وإن كانا يقتضيان توكيد إرسال الرسل، إلا أنهما أقل توكيدا لمسألة إنزال الوحي على النبي (صلى الله عليه وسلم)؛ إذ لا يقدر فيهما الفعل (قصصناهم) -الذي يقتضي إنزال الوحي بتلك القصص- كما كان الحال في النصب على الاشتغال. ولما كان إنكار اليهود لإنزال الوحي على النبي (صلى الله عليه وسلم) لا يقل عن إنكارهم إرسال الرسل، بل ربما يفوقه؛ ولمَ لا وقد كانوا ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٨٩] - لما كان هذا كله كان توجيه نصب (رسلا) على الاشتغال أولى؛ ليُقابَل إنكارُهم وجحودُهم بتأكيد إنزال الوحي على محمد (صلى الله عليه وسلم).

وفي قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾[الإسراء:١٢-١٣] قرئ (كلَّ شيء) و(كلَّ إنسان) بالنصب على الاشتغال؛ أي: (وفصلنا كلَّ شيء فصلناه)، (وألزمنا كلَّ إنسان ألزمناه)؛ ذلك أن سياق الكلام كان "جارياً في طريق الترغيب في العمل الصالح والتحذير من الكفر والسيئات ابتداء من قوله تعالى﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[الإسراء:٩-١٠] وما عقبه مما يتعلق بالبشارة والنذارة وما أدمج في خلال ذلك من التذكير، ثم بما دل على أن عِلم الله محيط بكل شيء تفصيلاً"(٢) وهذا السياق يناسبه بناء الكلام على الاشتغال؛ لما يقتضيه أسلوب الاشتغال من الاهتمام والتوكيد بتكرار الجملة، وفي ذلك ما فيه من "التنبيه على تفصيل أعمال الناس تفصيلاً لا يقبل الشك ولا الإخفاء، وهو التفصيل المشابه للتقييد بالكتابة، فعَطْفُ قوله: (وكل إنسان) على قوله: (وكل شيء فصلناه تفصيلاً) عَطْفُ خاص على عام للاهتمام بهذا الخاص"(٣).

---

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب ج٧ ص١٣٤، وانظر: تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج٣ ص٤١٤.

(٢) التحرير والتنوير ج١٥ ص٤٦.

(٣) التحرير والتنوير ج١٥ ص٤٦.

ويتأكد معنى التوكيد –المستفاد من أسلوب الاشتغال– بذكر المفعول المطلق (تفصيلا)؛ إذ ذُكر هذا المصدر تأكيدًا للكلام وتنبيهًا على تمام قدرة الله عز وجل، وأنه لايعجزه شيء(١).

إن سياق السورة يرجح وجها على آخر؛ ففي نصب (لوطًا) في قوله عز وجل ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾[الأنبياء:٧٤] وجهان: أحدهما أنه منصوب بفعل محذوف، والتقدير: (اذكر) لوطا، والآخر أنه معطوف على قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ ... ﴾[الأنبياء:٥١] قبل ثلاث وعشرين آية، والعطف هنا عطف جمل؛ "كأنه قال: وآتينا لوطاً، فهو منصوب بفعل مقدر يفسره الظاهر بعده، تقديره: وآتينا لوطاً آتيناه، فهي من الاشتغال"(٢). وسياق السورة يرجح الوجه الثاني؛ ذلك أن الله عز وجل نجاهما معا إلى الأرض التي بارك فيها، كما تنص على ذلك الآية الحادية والسبعون من السورة نفسها: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء:٧١]، وتلك النتيجة المشتركة يناسبها أن تَصدُرَ عن حكمة وعلم مشترك؛ فناسب ذلك كله العطف؛ إذ العطف يقتضي المشاركة. ويؤكد ذلك أن إتيان الجملة المعطوف عليها (ولقد آتينا إبراهيم رشده) مؤكدة (بقد) وصيغة الماضي – يناسبه إتيان الجملة المعطوفة مؤكدة أيضا، وذلك ما يتحقق بنصب (لوطا) على الاشتغال؛ إذ الاشتغال في قوة تكرار الجملة.

هذا فضلا عن أن في العطف بين هاتين الآيتين المتباعدتين –بنصب (لوطا) على الاشتغال– بيانًا لقوة سبك النص وحبكه وتلاحم أجزائه. أما السبك فيتحقق بالترابط التركيبي من خلال العطف، وأما الحبك فيتمثل في تشابه البداية والنهاية في القصتين كليهما؛ فإبراهيم ولوط كلاهما آتاه الله رشدا وعلما وحكمة، فأنكر كلٌّ منهما ضلالَ قومه ودعاهم إلى الحق، فأبوا، فكانت النهاية متشابهة كذلك؛ إذ أهلك الله الظالمين ونجاهما معا إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين.

---

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب ج١٢ ص٢٢٤، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج١١ ص٣٨٦.

(٢) اللباب في علوم الكتاب ج١٣ ص٥٤٧، وانظر: الجامع لأحكام القرآن ج١١ ص٣٠٦.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾[الفرقان: ٣٥-٣٩] " انتصب (وَقَوْمَ نُوحٍ) على الاشتغال، وكان النصب أرجح لتقدم الجمل الفعلية قبل ذلك، ويكون (لَّمَّا) في هذا الإعراب ظرفاً على مذهب الفارسي. وأما إن كانت حرف وجوب لوجوب فالظاهر أن (أَغْرَقْنَاهُمْ) جواب (لمَّا) فلا يُفسِّر ناصباً لقوم، فيكون معطوفاً على المفعول في (فَدَمَّرْنَاهُمْ)، أو منصوباً على مضمر تقديره (اذكر)"(١). وفي الأخذ بالوجه القائل بنصب (قومَ نوح) بفعل محذوف يفسره المذكور (أغرقناهم) -على طريقة الاشتغال- إشارةٌ إلى فضل عناية واهتمام بقوم نوح وخصهم بمزيد من توكيد الهلاك بالإغراق؛ وذلك "لأنهم أول من كذَّب رسولهم، فكانوا قدوة للمكذبين من بعدهم"(٢)، وعلى هذا الوجه ينتصب (وعادًا وثمودَ وأصحابَ الرس وقرونًا بين ذلك كثيرا) بفعل محذوف تقديره (اذكر)؛ إذ لا يستقيم عطفهم على المفعول به في (أغرقنا قوم نوح أغرقناهم)، لأن العطف يقتضي المشاركة، وهؤلاء لم يهلكهم الله غرقا، إنما أهلكهم ودمرهم بطرق أخرى مفصلة في مواطن أخرى من القرآن. وعلى ذلك ينصرف قوله تعالى:﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾[الفرقان: ٣٩] إلى أولئك المذكورين في هذه الآية دون قوم نوح وقوم موسى قبل ذلك. وتترابط الآيات حينئذ بواسطة التوازي التركيبي الدلالي؛ فعلى المستوى الدلالي تشابهت المقدمات والنتائج في قصص هؤلاء القوم؛ إذ خُص كل فريق ببيان أنهم ذكروا فكذبوا فكان الهلاك والتدمير عاقبة لهم؛ فقوم موسى ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾، ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾، وأما الفريق الثالث فكلهم ضرب الله له الأمثال وكلهم تبرهم تتبيرا. وعلى المستوى التركيبي تشابهت التراكيب؛ إذ سلكت الآيات مسلك التوكيد عن طريق التعبير بالمفعول المطلق في قوله تعالى:(فدمرناهم تدميرا) وقوله عز وجل: (وكلا تبرنا تتبيرا)، وعن طريق التعبير

---

(١) تفسير البحر المحيط ج٦ ص٤٥٧.

(٢) التحرير والتنوير ج١٩ ص٢٧.

بأسلوب الاشتغال الذي يقتضي التوكيد بتكرار الجملة في قوله تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾، وقوله عز وجل: ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ﴾ أي وأنْذَرْنا كلاً ضَرَبْنا له الأمثالَ وبيَّنا لهم الحجةَ، ولم نضرب لهم الأمثال الباطلة كما يفعله هؤلاء الكفرة. وقيل: انتُصب على تقدير: ذكَّرْنا كلاً ونحوه؛ لأن ضَرْب الأمثال تذكير ووعظ؛ ذكره المهدوي. والمعنى واحد"(١).

وفي الأخذ بالوجه الثاني (أي نصب "قومَ نوحٍ" عطفا على المفعول به في "دمرناهم") مراعاةٌ لسبك الآيات عن طريق العطف، أي: (دمرناهم وقومَ نوح وعادًا وثمودَ وأصحابَ الرس وقرونًا بين ذلك كثيرا)، "وتكون جملة (لما كذبوا الرسل أغرقناهم) مبيِّنة لجملة (دمَّرناهم)"(٢)، وينصرف -حينئذ- قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾[الفرقان: ٣٩] إلى هؤلاء جميعهم، فكلهم ذُكِّروا فكذبوا فكان جزاؤهم الإهلاك والتدمير.

ثانيا: تأكيد معنى الاختصاص:

للتعبير عن معنى الاختصاص في كلام البلغاء مراتبُ أربع(٣): أولها: مجرد تقديم المفعول نحو ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾[الفاتحة: ٥]. وثانيها: تقديمه على فعله العامل في ضميره نحو: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[الأنبياء: ٧٤]. وثالثها: تقديمه على فعله مع اقتران الفعل بالفاء نحو: ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾[المدثر: ٣]. ورابعها: تقديمه على فعله العامل في ضميره مع اقتران الفعل بالفاء نحو: ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾[البقرة: ٤٠]، ونحو قوله تعالى: ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾[البقرة: ٤١]، وقوله عز وجل: ﴿ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾[النحل: ٥١]، وقوله جل وعلا: ﴿ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾[العنكبوت: ٥٦]. فالمرتبة الثانية والثالثة والرابعة متدرجة في الدلالة على تأكيد معنى الاختصاص إلا أن المرتبة الرابعة "أوكد في إفادة الاختصاص"(٤)، ذلك لأنه إذا تقدم المفعول به في أسلوب الاشتغال وكان ضميرا منفصلا فالأولى تقدير الفعل المحذوف

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج١٣ ص٣٤.

(٢) التحرير والتنوير ج١٩ ص٢٦.

(٣) انظر: السابق ج١ ص٤٥٧.

(٤) الكشاف ج١ ص ١٥٩.

متأخرا لا متقدما على هذا المفعول؛ إذ لو قدر الفعل متقدما لاتَّصل الضمير المنفصل، ولفات معنى الاختصاص.

وإنما تأكد معنى الاختصاص من جهة مجيء الكلام على طريقة الاشتغال، و"الاشتغال في قوة تكرار الجملة"(١)؛ إذ تقدير الكلام (وإياي ارهبوا فارهبوني)، وحَذْفُ ياء المتكلم بعد نون الوقاية في الوقف والوصل –في قوله: (فارهبون، فاتقون، فاعبدون)– قراءة الجمهور، وهي لغة هذيل، ووجه ذلك أنها وقعت فاصلةً فعَدُّوها كالموقوف عليها، قال سيبويه (ت١٨٠هـ) في باب ما يحذف من أواخر الأسماء في الوقف: "وجميع ما لا يحذف في الكلام وما يختار فيه أن لا يحذف، يحذف في الفواصل والقوافي"(٢). وأثبتها يعقوب في الوصل والوقف، وهي قراءة عن ابن أبي إسحاق، وهي لغة الحجازيين. وحذفها عيسى بن عمر في الوقف وأثبتها في الوصل(٣).

وازداد التوكيد قوة باقتران الكلام بالفاء؛ ذلك أن دخولها أفاد معنى السببية والترتب التي هي "من معاني الفاء، وهي تأتي للربط بين جملة الشرط وجملة الجواب –إذا كانت جملة الجواب مما لا يصلح أن يكون شرطا– والشرط فيه ترتب شيء على آخر... ولذلك نجد أن مثل هذا التركيب مشبه بأسلوب الشرط لمكان الفاء"(٤)؛ فالكلام "إذا اقترن بالفاء كان فيه مبالغة، لأن الفاء كما في هذه الآية مؤذنة بشرط مقدر"(٥).

إن سياق الآيات يناسبه إرادة تأكيد معنى الاختصاص؛ ففي قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[البقرة:٤٠] عبر القرآن بقوله (وإياي فارهبون) عقب أمر بني إسرائيل بالوفاء؛ "لأنه لما كان من موانع الوفاء بالعهد الذي فشا تركه في شعب إسرائيل خوف بعضهم من بعض؛ لما بين الرؤساء ومرؤوسيهم من المنافع المشتركة – ذكَّرهم الله عز وجل بأن الأولى ألا تخافوا ولا

---

(١) التحرير والتنوير ج٢٧ ص ١٦.

(٢) الكتاب ج٤ ص١٨٤–١٨٥.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ج١ ص٤٥٧ ، ومعجم القراءات القرآنية للخطيب ج١ ص٩١.

(٤) بناء الجملة العربية ص ٩٦–٩٧ (د. محمد حماسة عبد اللطيف، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م)

(٥) التحرير والتنوير ج١ ص٤٥٥.

ترهبوا إلا من بيده أزمَّة المنافع كلها، وهو الله الذي أنعم عليكم بتلك النعمة الكبرى أو النعم كلها، وهو وحده القادر على سلبها، وعلى العقوبة على ترك الشكر عليها، **فارهبوه وحده ولا ترهبوا سواه**"(١). لما كان هذا شأنهم ناسبه أن يأتي الكلام مرادا به تأكيد اختصاص الله عز وجل بالرهبة دون سواه.

وفي قوله تعالى –في السياق نفسه– مخاطبا بني إسرائيل: ﴿ **وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ** ﴾[البقرة:٤١] سلك القرآن في قوله تعالى (وإياي فاتقون) المسلك السابق، فعبر بطريقة الاشتغال مع تقديم المفعول به واقتران الفعل المتأخر بالفاء؛ ذلك لإرادة تأكيد معنى اختصاصه عز وجل بالاتقاء؛ إذ إن " استبدال الباطل بالحق إنما كان منهم لاتقاء الرئيس فوت المنفعة من المرؤوس، واتقاء المرؤوس غضب الرئيس، فدحض هذه الشبهة بالأمر بتقوى الله وحده الذي بيده قلوب العباد وجوارحهم،وهو المسخر لهم في أعمالهم، وبيده الخير كله، وهو على كل شيء قدير"(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ** ﴾[النحل:٥١] عبر القرآن بالطريقة السابقة نفسها لإرادة تأكيد اختصاص الله عز وجل بالرهبة دون سواه؛ ذلك لأنه "لما كانت الوحدانية مما لا يخفى على عاقل، وكانت مركوزة في كل فطرة، بدليل الاضطراب عند المحن، والشدائد والفتن، وكانت الرهبة... خاصة بالخوف مما خالف العاصي فيه العلم، عبر بها فقال تعالى: (فارهبونِ) مُختصًّا بذلك، ولا تخافوا شيئاً غيري من صنم ولا غيره، فإنه ليس لشيء من ذلك قدرة، وإن أودعته قدرة فإنه لا يتمكن من إنفاذها، فالأمر كله إليّ وحدي"(٣).

وفي قوله عز وجل: ﴿ **يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ** ﴾[العنكبوت:٥٦] سلك القرآن الطريقة نفسها حينما قال (فإياي فاعبدون)؛ وذلك لأنه لما كانت سورة العنكبوت سورة مكية "وكانت الإقامة بمكة قبل الفتح مؤدية إلى الفتنة، وكان المَفْتون

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ج ٤ ص ١٥٢ "بتصرف يسير" (الإمام محمد عبده، تحقيق وتقديم د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

(٢) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ج٤ ص١٥٣.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج ١١ ص١٧٧.

ربما طاوع بلسانه، وكان ذلك،وإن كان القلب مطمئناً بالإيمان، في صورة الشرك"(١) – لمَّا كان هذا كله أكد عز وجل اختصاصه بالعبادة دون غيره، وذلك بالتعبير بطريقة الاشتغال مع تقديم المفعول به (إياي) واقتران الكلام بالفاء التي تؤذن بشرط محذوف، وتقدير الكلام (ومهما يكن من شيء فإياي اعبدوا فاعبدوني)، يقول الزمخشري مبينا معنى الترتب في قوله ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾[المدثر:٣]: "ودخلت الفاء لمعنى الشرط كأنه قيل: وما كان فلا تدع تكبيره"(٢).

ثالثا: تأكيد معنى الإنكار:

ذكر ابن هشام (ت٧٦١هـ) (٣) أن الهمزة تخرج عن الاستفهام الحقيقي؛ فترد لثمانية معان، منها: إفادة الإنكار الإبطالي، ويُراد حينئذٍ أن ما بعدها غير واقع وأن مدعيه كاذب. وينصرف الإنكار إلى مدخول الهمزة فإذا قلت: (أتفعلُ؟)، فبدأتَ بالفعل، كان مرادُك "أنك تنحو بالإنكار نحو الفعل، فإن بدأت بالاسم فقلت: (أأنتَ تفعلُ؟) أو قلت: (أهو يفعلُ؟) كنت وجهت الإنكار إلى نفس المذكور، وأبيتَ أن يكون بموضع من يجيء منه الفعل وممن يجيء منه، وأن يكون بتلك المثابة "(٤)، وحال المفعول في ذلك كحال الفاعل؛ "فإذا قلت: (أزيدًا تضرب؟) كنت قد أنكرت أن يكون زيد بمثابة من يُضرب، أو بموضع أن يُجترأ عليه ويُستجازَ ذلك فيه"(٥). وعد عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) من ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾[القمر:٢٣–٢٤]؛ "وذلك لأنهم بنوا كفرهم على أن من كان مثلهم بشرا، لم يكن بمثابة أن يُتبع ويُطاع، ويُنتهَى إلى ما يأمر، ويُصدَّق أنه مبعوث من الله تعالى، وأنهم مأمورون بطاعته"(٦).

---

(١) السابق ج١٤ ص٤٦٥.

(٢) الكشاف ج٤ ص٦٤٧.

(٣) انظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ج١ ص٩٠–٩٧ (ابن هشام الأنصاري، تحقيق: د. عبد اللطيف الخطيب، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).

(٤) دلائل الإعجاز ص١١٧، وانظر ص١١١ (عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: الشيخ محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٤م).

(٥) السابق ص١٢١.

(٦) السابق ص١٢٢.

والحق أن مجيء الكلام على جهة الاشتغال أفاد تأكيد ذلك الإنكار وتمكنه من نفوسهم، ذلك أن الاشتغال في قوة تكرار الجملة؛ إذ التقدير: (أنتبع بشرا منا واحدا نتبعه؟). ولو لم يكن مجيءُ الكلام على جهة الاشتغال آكدَ في الدلالة على الإنكار - لما كان هناك فارق بين قولهم: (أبشرا نتبعه؟) وقولهم:(أبشرا نتبع؟)، ولكان اشتغال الفعل بالضمير لغوا وزيادة في المبنى دون دلالة على معنى زائد؛ وذلك ما لا تقتضيه اللغة.

إن قراءة النصب -وهي قراءة الجمهور(١)- تقتضي أن يَنصَبَّ الإنكار على الفعل؛ إذ تقدير الكلام (أنتبع بشرا منا واحدا نتبعه؟)؛ فهؤلاء القوم لمَّا تمكن الإنكار من نفوسهم أصبحوا ينكرون الاتباع جملة -وإن كان ظاهرُ كلامهم إنكارَ اتباع بشرٍ منهم على جهة الخصوص- وهم إذا ما كانوا ينكرون الاتباع جملة واحدة، فإنكارهم لاتباع أحدهم أشد.

أما قراءة (أبشرٌ) بالرفع على الابتداء -وهي قراءة أبي السمال وأبي الأشهب وابن السميفع(٢)- فتقتضي أن ينصبَّ الإنكار على أن يكون المتَّبَعُ بشرًا من بينهم، ولو كان ملكا لاتبعوه. إلا أن وجه النصب أرجحُ؛ "لأن همزة الاستفهام بالجمل الفعلية أولى منها بالاسمية"(٣)، وآكدُ في الدلالة على الإنكار؛ لمجيء الكلام على الاشتغال الذي يقتضي تكرار الجملة.

رابعا: تأكيد معنى العموم:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر: ٤٩] قرأ الجمهور (كلَّ) بالنصب على الاشتغال بتقدير فعل محذوف يفسره المذكور؛ والتقدير: (إنا خلقنا كلَّ شيء خلقناه بقدر)، والنصب اختيار الكوفيين. وقرأ أبو السمَّال (كلٌّ شيءٍ) بالرفع على الابتداء -وهو اختيار البصريين- والخبر (خلقناه)(٤). لكن القدرية وجهت قراءة الرفع على أن (خلقناه) صفة لـ(شيء) والخبر (بقدر)(٥)، وهذا يعني أن هناك أشياء غير مخلوقة لله!! تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

---

(١) انظر: معجم القراءات القرآنية للخطيب ج٩ ص٢٢٩.

(٢) انظر: معجم القراءات القرآنية للخطيب ج٩ ص٢٢٩.

(٣) مغني اللبيب ج٦ ص ٢٥٩.

(٤) انظر: تفسير البحر المحيط ج٨ ص١٨١ ومعجم القراءات القرآنية للخطيب ج٩ ص٢٤٠.

(٥) انظر: تفسير البحر المحيط ج٨ ص١٨٢.

ودفعا لهذا الظن الباطل كان النصب أقوى وأوجب "وإنما كان النصب أقوى **لدلالته على عموم الخلق**، والرفع لا يدل على عمومه، بل يفيد أن كل شيء مخلوق فهو بقدر"(١)، يعني أن الرفع يوهم كون (خلقناه) صفة مقيّدة، فهو ليس مطلقا عاما!! بخلاف قراءة النصب على الاشتغال لإرادة معنى العموم، "قال قوم: إذا كان الفعل يُتوهَّم فيه الوصف،وأن ما بعده يصلح للخبر، وكان المعنى على أن يكون الفعل هو الخبر - اختير النصب في الاسم الأول؛ حتى يتضح أن الفعل ليس بوصف، ومنه هذا الموضع؛ لأن في قراءة الرفع يُتخيَّل أن الفعل وصف، وأن الخبر (بقدر)"(٢). "وإنما دل النصب في (كل) على العموم، لأن التقدير: (إنّا خَلَقْنَا كُلَّ شَيْء خَلَقْنَاهُ بِقَدَر)، فـ(خلقناه) تأكيد وتفسير لـ(خَلَقْنَا) المضمر الناصب لـ(كُلَّ شَيْءٍ). فهذا لفظ عام يَعُمُّ جميع المخلوقات"(٣). فـ"**النصب نصٌّ في عموم خلق الأشياء خيرها وشرها بقدر**، وهو المقصود"(٤).

إن قراءة النصب –على الاشتغال– لا تعني إفادة معنى عموم خلق الأشياء لله بقدر فحسب، بل تؤكد معنى ذلك العموم؛ لأن الاشتغال في قوة تكرار الجملة. وذلك التكرار هو الذي جعلنا نقرر من قبل أن معنى التوكيد هو المعنى الرئيس الذي لا ينفك عن كل جملة بها اشتغال.

خامسا: إرادة معنى الزجر:

أشرنا في صدر هذا البحث إلى **أن النصب في باب الاشتغال** يكون بفعل واجب الإضمار **(من لفظ الظاهر)** إن أمكن **(أو من معناه)** إن لم يمكن، نحو: إن زيدا مررت به فأحسن إليه، فيقدر: إن جاوزت زيدا مررت به. وفي قوله تعالى: ﴿ **وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا** ﴾[الفرقان: ٣٩] انتصب (كلاً) الأول على الاشتغال بفعل من معنى الفعل المذكور لا من لفظه؛ "أي فأنذرنا كلا أو حذرنا كلا"(٥)، ذلك لأن " معنى ضرب

---

(١) التبيان في إعراب القرآن ص١١٩٦ (أبو البقاء العكبري، تحقيق: محمد علي البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، د. ت.).

(٢) تفسير البحر المحيط ج٨ ص١٨١.

(٣) اللباب في علوم الكتاب ج٨ ص٢٨١–٢٨٢.

(٤) شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ج٢ ص١١٥–١١٦.

(٥) تفسير البحر المحيط ج٦ ص٤٥٨.

الأمثال أي بيَّن لهم القصص العجيبة من قصص الأولين، ووصفنا لهم ما أدى إليه تكذيبهم بأنبيائهم من عذاب الله وتدميره إياهم؛ ليهتدوا بضرب الأمثال، فلم يهتدوا"(١).

إن سياق الآيات يؤكد ضرورة تقدير فعل يفيد معنى الزجر؛ إذ ضرب الأمثال غرضه زجرهم وتخويفهم ليهتدوا، يقول عز وجل: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[الإسراء: ٥٩]. وإضافة إلى معنى الزجر أفاد الاشتغال معنى التوكيد بالتكرار؛ لكنه ليس تكرارا للفظ الجملة هذه المرة، إنما هو تكرار لمعنى الزجر.

سادسا: مراعاة الفاصلة:

وذلك في قوله تعالى ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾[عبس: ١٩–٢٢]؛ إذ إن في اشتغال الفعل (يسَّرَ) بالضمير اطرادًا لفاصلة الراء الموصولة بالهاء، كما يتضح من الآيات؛ مما أضفى على قصة الخلق والبعث خلفية موسيقية واحدة، فبدا تيسير السبيل جزءا لا يتجزأ من مسيرة الإنسان وطورا من أطواره التي يتدرج فيها من خلق إلى تيسير إلى إماتة إلى بعث ونشور.

وليست مراعاة الفاصلة هي الغرض المراد فحسب؛ إذ إن في بناء الكلام على الاشتغال معنى تأكيد قضية اختيار الإنسان بين الخير والشر.

* * *

(١) السابق ج٦ ص٤٥٨.

نتائج البحث:

١. أشار البحث إلى أن النحويين توقفوا عند حدود المعالجة التركيبية لأسلوب الاشتغال، فبيَّنوا الأوجه الإعرابية الخمسة للاسم المشغول عنه، ولم يتعدوا ذلك إلى بيان ما وراءه من دلالات.

٢. أشار البحث إلى أن اختلاف النحويين حول عامل النصب في الاسم المشغول عنه يؤدي بالضرورة إلى اختلاف التوجيه الدلالي لأسلوب الاشتغال. بيان ذلك أن الجمهور يرون أن عامل النصب فعلٌ واجب الإضمار (من لفظ الظاهر) إن أمكن (أو من معناه) إن لم يمكن؛ وعلى هذا الرأي يعد أسلوب الاشتغال جملتين لا جملة واحدة، ويترتب على ذلك مجموعة من الدلالات التي يدور أغلبها حول فوائد تكرار الجملة. في حين أن الكسائي (ت١٨٩هـ) والفراء (ت٢٠٧هـ) يريان أن العامل لفظ الفعل المتأخر، وعلى هذا الرأي يصبح الكلام جملة واحدة لا جملتين، وفائدته تأكيد إيقاع الفعل على المفعول به بتسليطه عليه مرة وعلى ضميره مرة أخرى؛ وهذا نوع من التكرار، لكنه تكرار للمعمول دون العامل، فهو تكرار على مستوى المفردات، لا على مستوى الجمل. أما أبو القاسم السهيلي فيرى -آخذًا برأي شيخه أبي الحسين ابن الطراوة- أن عامل النصب في الاسم المتقدم عامل معنوي هو (القصد إليه بالذكر)؛ وهذا يعني أن الكلام جملة واحدة، وغرض نصب الاسم المتقدم قصده بالذكر على الإطلاق دون تقييده بزمان أو حال.

٣. وردت إشارات متفرقة عن دلالات الاشتغال -لدى بعض المفسرين- تدور كلها حول إفادة التوكيد عن طريق تكرار الجملة.

٤. استطاع أصحاب (النحو الوظيفي functional grammar) بيان الفارق الدلالي بين وجهي الرفع والنصب للاسم المتقدم، وذلك بناء على الفروق التداولية بين الوجهين. فبينوا أن ورود الاسم المتقدم (المشغول عنه) منصوبا يعني أنه شغل وظيفة (المحور) وهو [محدَّث عنه داخل الحمل -أي داخل الإسناد بالجملة الرئيسة- وإنما قدم إلى هذا الموقع **إشعارا بكونه محط اهتمام ومحل عناية**]. في حين أن اختيار رفع هذا الاسم المتقدم يعني أنه شغل وظيفة (المبتدأ) -

بوصفها وظيفة تداولية لا نحوية– وهي وظيفة تداولية خارجية –أي خارجة عن نطاق الحمل– **[لا تعني أكثر من كونها محددة لمجال الخطاب، والحمل بعدها يقدم فحوى الخطاب، دون إرادة معنى الاهتمام والعناية]**.

٥. تأكد –من خلال البحث– أن **معنى (التوكيد) من المعاني التي لا تنفك عن كل جملة بها اشتغال**؛ لأن الاشتغال –أخذًا برأي الجمهور– يعد "في قوة تكرار الجملة"، وبعبارة أخرى: يُختار أسلوب الاشتغال لإرادة تقوية الفعل وتوكيده بتقدير نظيره المحذوف من جهة، وتأكيد المشغول عنه بتقديمه ثم توكيده بالضمير من جهة أخرى، **يضاف إلى ذلك معنى الاهتمام والعناية إذا ما اختير نصب الاسم المشغول عنه**.

٦. تتجلى في أسلوب الاشتغال مجموعة من المعاني الفرعية نحو: (تأكيد معنى الاختصاص – تأكيد معنى الإنكار – تأكيد معنى العموم – إرادة معنى الزجر – إضافة إلى مراعاة الفاصلة القرآنية)، ويتحقق معنى من تلك المعاني دون معنى آخر تبعا لسياق الكلام. فإذا لم يتجلَّ معنى من هذه المعاني الفرعية اكتفى التركيب بأداء المعنى الرئيس (التوكيد عن طريق تكرار الجملة) دون إرادة معنى الاختصاص أو الإنكار أو العموم أو الزجر.

٧. اتضح من خلال تناول بعض الآيات أن اختيار نصب الاسم المشغول عنه يؤدي –أحيانا– إلى سبك النص وحبكه وتلاحم أجزائه.

* * *

المصادر والمراجع:

- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن** (محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
- **الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده** (الإمام محمد عبده، تحقيق وتقديم د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك** (ابن هشام الأنصاري، دار الجيل، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٧٩م).
- **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير** (أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الخامسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
- **البرهان في علوم القرآن** (الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧ م، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة).
- **البعد التداولي في النحو الوظيفي من منظور المعطى اللغوي التراثي** (د. طه الجندي، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، إصدار خاص سنة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م).
- **بناء الجملة العربية** (د. محمد حماسة عبد اللطيف، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م).
- **التبيان في إعراب القرآن** (أبو البقاء العكبري، تحقيق: محمد علي البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، د. ت.).
- **تجديد النحو** (د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م).
- **التحرير والتنوير** (محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م).
- **تفسير البحر المحيط** (أبو حيان الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- **الجامع لأحكام القرآن** (القرطبي، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، السعودية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).
- **حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك** (محمد بن علي الصبان، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د. ت.).
- **دراسات لأسلوب القرآن الكريم** (محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة، د. ت.).

- **دلائل الإعجاز** (عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: الشيخ محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٤م).
- **شرح الأشموني على ألفية ابن مالك** (أبو الحسن الأشموني، ضمن: حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د. ت.).
- **شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب** (ابن هشام، تحقيق: عبدالغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م).
- **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك** (ابن عقيل، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م).
- **شرح الرضي على كافية ابن الحاجب** (رضيّ الدين الاستراباذي، تحقيق: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م).
- **الكتاب** (سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** (أبو القاسم الزمخشري، تحقيق: عبد الرازق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د. ت.).
- **اللباب في علوم الكتاب** (ابن عادل الدمشقي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م).
- **لسان العرب** (ابن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، د. ت.).
- **معاني القرآن** (الأخفش الأوسط أبو الحسن سعيد بن مسعدة، تحقيق: د.هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م).
- **معجم القراءات القرآنية** (د. عبد اللطيف الخطيب، دار سعد الدين، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).
- **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب** (ابن هشام الأنصاري، تحقيق: د. عبد اللطيف الخطيب، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).
- **نتائج الفكر في النحو** (أبو القاسم السهيلي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** (برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ت.).

- **الوظائف التداولية في اللغة العربية** (أحمد المتوكل، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).
- **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع** (السيوطي، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

* * *